

خديجة بنت خويلد

عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول :
« أرسلوا إلى أصدقاء خديجة . » قالت : فذكرت له يوماً
فقال : إني لأحب حبيبها .

● خديجة في الجاهلية

هي خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن أسد القرشية
الأسدية الصديقة الكبرى ، والأم الأولى للمؤمنين ، والزوج
الأولى للرسول الكريم ، وأم أولاده جميعاً إلا إبراهيم .

كانت في الجاهلية تحت أبي هالة بن زرارة التيمي ،
وقد مات عنها ، بعد أن ولدت له هنداً الذي آمن بالرسول
وصحبه وشهد معه بدرًا ، كما ولدت له هالة بن أبي هالة
وكان له صحبة أيضاً .

وبعد موت أبي هالة تزوجها عتيق بن عابد المخزومي فولدت له بنتاً اسمها هند ، لها إسلام وصحبة ، ثم خلف عليها بعد عتيق سيد الأزواج محمد بن عبدالله .
وكانت خديجة تُدعى في الجاهلية : الطاهرة لشدة عفافها وصيانتها ، ويصفونها بسيدة نساء قريش .

● خديجة التاجرة

كانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجاراً .

وفي جلسة بين أبي طالب ومحمد ابن أخيه قال له : يا ابن أخي ، أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليس لنا مادة ولا تجارة ، وهذه غير قومك ، قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة تبعث رجالاً من قومك يتجرون في مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال محمد عليه السلام : لعلها ترسل إليّ في ذلك .

فقال أبو طالب : إني أخاف أن تولي غيرك .

وبلغ هذا الحوار بين محمد وعمه إلى خديجة ، فما كان منها إلا أن أرسلت إليه لما عرفت عنه من الصدق والأمانة ، وحسن السمعة ، وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له « ميسرة » فقبل رسول الله منها ، وخرج في مالها ذلك ، ومعه غلامها ميسرة إلى الشام .

● شريكة التجارة تصبح شريكة الحياة

عاد محمد من الشام بربح وفير لم تحصل عليه خديجة من قبل ، وعاد إليها غلامها بحديث أوفر من الربح عن هذا الرفيق الكريم وما رأى ولمس فيه من سمو الأخلاق وعجيب الآيات .

وهذا قلب خديجة إلى محمد أن يشركها في الحياة كما شركها في التجارة فإنه رجل نادر المثال حقاً !!

شاب ، وليس فيه عبث الشباب ، تاجر ، وليس فيه
جشع التجار ، فقير ، وليس فيه ضعة الفقراء ، قرشي ،
وليس فيه زهو قریش .

إن الرجال اعتادوا أن يخطبوا النساء ، فكيف تخطب
المرأة الرجل ؟

هذه هي المشكلة ، ولكن خديجة تحلها عن طريق
صديقتها نفيسة أخت يعلى بن منبه .

أرسلتها خديجة دسياً إلى محمد ، فقالت له :
ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما في يدي شيء .

قالت : فإن كُفيتَ ودُعيتَ إلى المال والجمال والكفاءة ؟

قال : ومن ؟ قالت : خديجة ، قال : وكيف لي بذلك ؟

قالت : عليّ ذلك .

فسارع الرسول إلى إعلان قبوله ، وذهبت نفيسة إلى
خديجة فبشرتها بنتيجة هذا الحديث ، ولم تلبث خديجة أن

حددت الموعد الذي يلتقي فيه محمد وأعمامه بأهل خديجة ، فذهب الرسول ومعه عمّاه أبو طالب وحمزة وخطبوا خديجة من عمها عمرو بن أسد ، وكان صداقها عشرين بكرة ، وكانت سنّها أربعين سنة وكان هو في الخامسة والعشرين على أشهر الأقوال .

• زواج مثالي

لقد كان من الميسور لمحمد بن عبدالله أن يتزوج فتاة من أبكار قريش ، بدل هذه الثيب التي تزوجت مرتين ، وبلغت الأربعين أو جاوزتها ، وأوشك وجهها أن يتجعد ، وشعرها أن يشيب .

لو كان من عشاق الجسد وطلّاب الشهوة لكان له في الأبنكار الصغار متسع ، وهو الفحل لا يُقدع أنفه ، والقرشي الهاشمي لا ترد خطبته ، وله من قوة شخصيته ، وحسن سمعته ووسامة طلّعه ، وشهرة أسرته ، ما يزيل العقبات ، ويمهد السبيل .

ولكنه كان ينشد العقل الرشيد ، والقلب الكبير ، فوجدهما في خديجة .

وكان أمام خديجة - وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً ، وأعظمهن شرفاً ، وأكثرهن مالاً - من عظماء قريش وأثريائها مَنْ يتمنى زواجها ، وَمَنْ أرسل إليها يخطبها ، ولكنها رغبت عنهم جميعاً ، شعرت بأنهم يخطبون مالها لا شخصها ، يخطبون خديجة الغنية لا خديجة الإنسان .

ردت خديجة يد أشراف قريش ، ولم تجد حرجاً أن تعرض نفسها - بواسطة أو بغير واسطة - على الشاب الفقير الذي يعمل في تجارتها ، إنها وجدت في محمد ضالتها ، فاخترته بقلبها الملهم ، وإنما اختارت لنفسها - في الحقيقة - الخلود ، ودخلت التاريخ من أوسع الأبواب .

ومن أولى بمحمد من خديجة ؟ وأولى بخديجة من محمد ؟ إن المرأة التي يلقَّبونها بالطاهرة أولى بالرجل الذي يلقَّبونه بالأمين ﴿ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ ﴾ (النور: ٢٦).

وكان زواجاً سعيداً موفقاً لم تغم سماؤه يوماً من الأيام ، ولم يعكر صفوه افتتان المرأة الغنية بمالها ، ولا اعتداد الشاب الفتى بشبابه ، بل كان شبابه كله لها ، وكان مالها كله

له ، يبذل منه ما يرى في صلة الرحم ، ووجوه البر ،
وصنائع المعروف .

أصاب الناس سنة جذب فجاءت حليلة السعدية
مرضعة الرسول إليه فأكرم وفادتها ، وعادت من عنده
ومعها من مال خديجة بغير يحمل الماء ، وأربعون رأساً
من الغنم .

وكانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله ولم يتزوج
عليها غيرها حتى مات ﷺ .

وقد ولدت له أولاده كلهم ، إلا إبراهيم : ولدت له من
الذكور : القاسم وهو أكبر بنيه ، وبه كان يُكنَّى بعد البعثة ،
وعبد الله ويُلقَّب بالطيب والطاهر ، ومن الإناث : رقية ثم
زينب ثم أم كلثوم ثم فاطمة أصغر بناته .

فأما القاسم وعبد الله فماتا في الجاهلية ، وأما البنات
فقد أدركن الإسلام وهاجرن معه عليه السلام ، وقد كان
يتوقع من خديجة أن يهلع فؤاها لموت أبنائها من رجل

تحبه في عصر كانت تُؤاد فيه البنات ولكنها كانت دائماً
مثال العزم الراسخ والإيمان الصّبور .

● خديجة المؤمنة

ثلاث نسوة بارزات في حياة الرسل الثلاثة أصحاب
الديانات الأخيرة الكبرى : آسية امرأة فرعون في حياة
موسى ، ومريم ابنة عمران في حياة عيسى ، وخديجة في
حياة محمد عليه السلام ، كل واحدة منهن كفلت نبياً مرسلأً
قبل بعثته ، وأحسنّت الصّحبة في كفالته ، وصدّقت به بعد
رسالته ، لهذا جمع الرسول بين هؤلاء الكوامل في عقد
واحد فقال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء
إلا مريم ابنته عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت
خويلد » .

وإذا كان بعض الحكماء يقول : « إن وراء الرجل العظيم
امرأة تشد أزره . أمأً كانت أو زوجاً » فقد كانت خديجة
المرأة التي وراء محمد عليه الصلاة والسلام .

أعانتة في الجاهلية على حياته الطاهرة النقية البعيدة عن
الأوثان والخمر والميسر واللغو والشهوات ، وكانت له
ظهيراً في حياة التجرد والتأمل والبعد عن صخب الناس
وضوضاء الحياة .

كانت تُهيئ له الزاد كل عام ليقضي شهر رمضان في غار
حراء، ولو كان الأمر لعاطفتها المجردة ما رضيت - كامراً -
أن يغيب عنها ليلة واحدة ، فكيف بالليالي ذوات العدد ؟
ولكنها تحس أن زوجها غير الرجال ، وأن له شأنًا أي
شأن ، فلتكن عونته على مثله الرفيعة ، وقيمته العليا ، وقد
كانت تصحبه أو تزوره أحياناً في هذا الغار وتبقى معه
أياماً وليالي تؤنسه وترعاه ، ومن طواعيتها له قبل البعثة
ومسارعتها في هواه أنها رأت ميله إلى زيد بن حارثة - بعد
أن صار في ملكها فوهبته له ، فكانت هي السبب فيما امتاز
به زيد من سبق إلى الإسلام .

هذه خديجة في الجاهلية ، وأما بعد الرسالة ، فاستمع
إلى عائشة تروي موقفها من الرسول حينما تلقى أول
شحنة من وحي السماء في غار حراء ، وغطه جبريل حتى

بلغ منه الجهد ، فعاد إلى خديجة ترجف بوادهه يقول :
زملوني ، زملوني ، لقد خشيتُ على نفسي

ولم تكن خديجة ممن يطير لبها فزعاً ، ولم يكن هذا الطارئ العجيب الغريب ليذهلها عن سداد الرأي ، ومنطق الحكمة ، لقد عرفت بنور بصيرتها وسلامة نظرتها سنة الله في معاملة عباده فقالت لزوجها في ثقة و يقين : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتصدق الحديث ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الدهر .

وفي رواية قالت له : أبشر واثبت يا ابن عم ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ولم تكتف بالقول ، بل صحبتته إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل - وقد كان امرئاً تنصّر في الجاهلية ، وعرف العبرانية ، وكتب بها من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب - فقالت له خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخى ما ترى ؟ فأخبره رسول الله خبر ما رأى .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزله الله على موسى .
وهكذا كانت خديجة ملاك الرحمة ، والمرفأ الأمين ،
والملاذ المكين لمحمد عليه السلام .

كانت أنسه إذا استوحش ، وكنزه إذا احتاج ، وأمله إذا
استيأس ، وطمانينته إذا اضطربت من حوله الحياة .

قال ابن إسحق: كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ،
وصدَّق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن نبيه ، فكان
لا يسمع شيئاً يكرهه ، من الرد عليه ، والتكذيب له ،
فيحزنه ذلك ، إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها ، تُبَّتْه
وتخفَّف عنه ، وتهوَّن عليه أمر الناس .

شاطرته متاعب الدعوة ، وآلام الرسالة راضية مغتبطة ،
دخل الشعب فدخلت معه ، وذاقت مرارة الحرمان وعضة
الجوع ، وهي ذات المال الوفير وربيبه الرفاهية والنعيم ،
فلا عجب أن يحمل إليها أمين الوحي السلام من فوق سبع
سموات !

روى البخاري عن أبي هريرة قال : « أتى جبريل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها . . ومني ، وبشرها ببیت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب »^(١).

قال السهيلي : إنما كان البيت بهذا الوصف ، لأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ ولم تتبعه يوماً من الدهر ، ولم تصخب عليه مرة ولا آذته أبداً .

● وفاة . . ووفاء

في السنة العاشرة من البعثة ، وقبل الهجرة بثلاث سنين شاء القدر الذي يتلى الناس قدر دينهم أن يختطف من الرسول زوجه الحبيبة خديجة التي كانت له - كما قال ابن هشام - وزير صدق على الإسلام .

وقبلها بقليل مات ساعده الأيمن عمه أبو طالب ، تلك كانت ملاذه في الداخل ، وهذا كان عضده وناصره في

(١) قال ابن هشام : القصب هنا : اللؤلؤ المجوف .

الخارج ، فكان هذا المصاب بعد ذاك جديراً أن يترك في نفس النبي أثراً عميقاً جعله يسمي هذا العام عام الحزن .

ماتت خديجة ولكن ذكرها لم تمت في نفس رسول الله ، لقد ظل وفياً لها طوال حياته : يحن لذكرها ويهش لأهلها ، ويكرم صديقاتها ، حتى إن عائشة أحب أزواجه إليه بعدها لتغار منها في قبرها ، قالت : كان رسول الله لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يوماً من الأيام فأخذتني الغيرة فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟

فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذَّبني الناس ، وواستني بماله إذ حرمني الناس ، وزرقتني الله منها الولد دون غيرها من النساء !! قالت عائشة : فقلت في نفسي : لا أذكرها بعدها بسيئة أبداً . رحمها الله ، ورضيَ عنها ، وجزاها عن نبيه ودعوته خير ما يجزي الصديقات . .

* * *